البـــــراءة

قصة بقلم
الدكتور يوسف ادريس

ابتسامة الجنرال والزورق والدعوة . الابتسامة غير بعيدة على مرمى البصر ، والدعوة قائمة ومستمرة ومتجددة ، كرياح خافتة دائمة الهبوب . الزورق تتلاعب به المياه ، تعلو به موجة ، تنخفض به موجة. باغراء كبير يتلاعب . الابتسامة غير واسعة ، وكأنما بالارادة محددة الحجم ، مضبوط ارتفاع شفتها العليا . مقاس تأثيرها بدقة زائدة . الجنرال سمين اكثر مما يبدو في صوره بالصحف ، واقف يتمشى ، راض عن الدنيا تماما . صلعته الامامية تلمع بحبيبات عرق تحت ضوء الشمس . الشمس حارة لكنها غير لاسعة ، في الحقيقة مبتسمة . تلف الجو كله بروح الاغراء والدعوة . عصا الجنرال تحت ابطه ولكن ثيابه مدنية ، وقميصه صيفي بنصف كم . انبغة السوداء التي تحجب عينه من فرط الرضا المبتسم والوجه المكتنز قد اختفت أو كادت . في الحقيقة لا ألحظها . لا أرى أظافر ، أو رؤوس حراب أو خناجر غدر . الجمهور على المرسى الخشبي القديم ، متدلي الرؤوس من فوق الحاجز ، يتطلع ساكتا سكوت الدهشة ، سكوت حب الاستطلاع ، سكوت الفرجة ، سكوت يوم الدين ، ولكنه سكوت الجنرال لامر ما ، او لخاطر ما ، يضحك ، ضحكة قصيرة ترتعش لها عصا الضباط العظام تحت ابطه ، ضحكة فقط فتحت فمه ، أسنانه تبدو قديمة منفرجة ، متسخة قليلا ، ولكنها بلا أنياب ، بلا أنياب .

ابتسامة الجنرال والزورق والدعوة ، وعبرت . كيف ؟ لا أعرف. على ماء كالحرير ، أو حرير من الماء ، عبرت ، بالنزوة ، بالتلقائية ، بالرغبة ، عبرت . هببت . كما تهب النسمة في الاتجاه المضاد، هببت . أصبحت هناك . اهتزت أهداب العين الواحدة في ترحاب وفور . الابتسامة أضيف اليها طعم الاكتفاء . عصا الضباط العظام تراخت ، تحت ابط لم يعد مشدود العضلات . لم تمتد يده تصافحني . في وجهه تعبير من لا يريد احراجي ، من يعرف اني لن أصافحه . أنا فقط أريد أن أرى ، مجرد أن أرى وأتفرج . عن كثب اشاهد ، والرؤية ليس فيها دنس . نظيف القلب انا مثل (بفتة) المحلة البيضاء . كيف أصافح وأيديهم ملأى بالحيات والثعابين والعقارب ؟ أنا متأكد انني لو مددت يدي ، وصافحت ، لالتصقت باليد التصاق الابد ، ولا أعود استطيع الانفصال . للفرجة جئت ، وعلى الضفة الاخرى كنت أتفرج . والآن ، عن قرب أفعل . فماذا يضير ؟ ماذا يضير ؟

أتجول ، وفوق الشاطىء الرملي أقدامي تتحرك ، خفيف الوزن كأني هبطت فوق القمر ، هبطت فوق الوجه الآخر للقمر . الشمس تماما غير مباشرة ، نورها يأتي ، ضعيفا واهنا ، كنور الفسق ، من كل اتجاه يأتي ، والى كل اتجاه يمضي ، فلا يبقى الا اثر الفسق.

كل شيء على الشاطىء هنا . المدن صغيرها وكبيرها هنا . البلاجات ، المواخير ، وحتى مصانع الاسلحة السرية هنا . لا أحتاج الا لخطوة واحدة ، فيتغير الزمن ، ويتغير المكان . الجنرال أشعر به من بعيد يراقبني . كان من واجبه مصاحبتي . ولكنه تأدبا أراد لي ان اكون بمطلق حريتي . اختار ما يحلو لي . لا تتأثر ارادتي حتى بمجرد قربه او وجوده . ولكن عيني الخلفية تحس به يحرك رأسه أنّى أتحرك. ابتسامته لا تتغير . وجهه ثابت الملامح الراضية . لا اعرف ان كان سعيدا ، اني اخيرا جئت ، أم غير مكترث بالمرة .. عصاه تحت ابطه، رأسها كالبوصلة يتحرك ، يتعقبني ، يحرك الاشياء أمامي ، يغير الزمان والمكان والمشهد . رأس العصا ليس مندمجا في غلظة او وضوح، انما هو ، كوجه الجنرال ، ينسكب انسيافا منسقا مع بقية الجسم .

من الغمام الفسقي برز وجه سيدة . أمامي منحنية قليلا ، وقفت . جيدا لم أتبين الملامح . هل كان لها رأس حقا ؟! انما بالتأكيد سيدة . تكلمت عاما ، ربما عامين ، ولكني لا اريد ان اسمع . أخرجت من حقيبة يدها ، التي تشبه حقائب الدبلوماسيين ، اصبع روج . نفت قاعدته ، فانبثق من فتحته بدلا من الروج ماركات ألمانية حقيقية . آلاف الاوراق . كل ورقة بألف مارك . لفته مرة أخرى . انبثقت دولارات ، ليرات ، دينارات ، ورقات بعشرات الجنيهات . أشحت . أغلقت الاصبع . قدمته بلطف زائد . أشحت . الجهاز عجيب . ولكني أشحت . تفرجت وأشحت . بعيني الخلفية أحسست باثر شعاعي كومضة البرق . ومن عصا الجنرال صدر . اختفت . ومجرد خطوة اخرى مثلا ، وجدتها تنتظرني . ليست فقط بملامح أنثوية واضحة ، ولكنها بالملامح الانثوية التي أريدها . الوجه طويل ينتهي بذقن يتوسطها طابع الحسن ، عميقا كالسرة . الشعر ناعم ومتهدل ومفروق وكأنما منذ أن نما . من أنوسط يتهدل ، ويخفي الاذنين ، ويغمر الاكتاف والصدر . الشفتان قطعا لشابة في السابعة عشرة . شفاه جربت لا بد القبل ، ولكنها لم تمتهن بعد ، بأعنف القبل . العيون واسعة ، ومليئة بالغريزة المشعة ، والرموش طويلة ، تكاد تبين كل رمش منها ، نافر وحده كسلك الشمسية . رموش برية ، بركانية ، كأنما فجرتها بغزارة طبيعية أم بدائية . قبل ان تكلمني سمعتها ، كالسائح المغامر قررت أن أسمعها ، وأيضا لن أصافحها . أعرف تماما ان يدي اذا لامست يدها ، فمحال ان أستردها .

كالسائح رحت اسمع . وكالرجل الذي بدأ يدمدم فيه البركان رحت أرى . آذاني بدأت تنجذب بقوة . والبركان في بدأت دمدماته تقل ، وتهدد بأن تهدأ . ثاقب كلامها . عقلها يبهرني ، يبلعني ، يغرقني في فيض من رؤى الحياة . أتأملها فأشعر كأني ما عشت الحياة او مارستها .مدمر منطقها . مخي أراه رأي العين نسيج عنكبوت تمزقه

الاف من ذرات الكلمات الذكيات ، الموجهة بعناية وتبدو تماما وكانها تلقائية . البركان خمد . الاعجاب في وعيي يزداد الى درجة جاوزت حد الخطر . كنت واثقا اني في اللحظة الفاصلة أستطيع ان اكون السيد والغالب . والمهدم بضربة كل ما شيدته في عقلي من أوهام . ولكن رغبي انها أصبحت أصلب من الحقائق ، وأدرك اني حالا ، وبعد ثانية ، ومهما أهويت ، فلن أهدم شيئا .

وفجأة ، من الاعماق البعيدة ، انتفض صوت النذير ، وخطوب ، غضبا خطوت ، مقررا بلا رجعة أن اعود . لقد جئت اتفرج . فجأة أيضا ظهر الجنرال . امامي وقف . الابتسامة هذه المرة ابتسامة اعتذار واضح . مدّ يده ، بالادق الادق ، حرك يده حركة تصلح ان تكون مشروع مصافحة . لا يا جنرال حتى أنت لا أصافحك ، بذكاء شديد ادرك ، بذكاء اشد تحولت همة اليد الى حركة لبقة داعية ان اتقدم . رحت اجمع نفسي ، والتقط انفاسي ، وارفع القدم وابدأ أتحرك .

طابور طويل طويل ، قادم من بعيد ، من ابعد بعيد ، وكانما يبدأ أوله عند الامس ، وقبل الامس ، ومئات السنين . طابور عليه مسحة الحزن الذليل . بنات وسيدات ، مسنات وصبايا في الثالثة عشرة ، بيض وحمر ، وسمر وصفر ، شاحبات . امامي تتردد الواحدة ، بانكسار تنتظر . بانكسار ترفع الرأس . بأهداب منكسرة تنتظر الرؤيا . بعيون فيها الحزن الرفيق تتمنى . الاسى أنثوي ويضفي على المرأة أنوثة . وليس اكثر انوثة من الحزن الا الصبايا الحزانى . الاسى لا يستثير الشفقة . انه يستثير الفحولة . اختر ما تشاء . أمامك المائدة حافلة . امامك طابور الاسى الانثوي كاملا غير منقوص . خضرة المراهقات امامك . خبرة المدربات امامك . خجل ربات البيوت امامك . الارامل الفتيات امامك . الفقيرات الجميلات امامك . يكفي ان تلمس الواحدة فتذوب امامك . تغوص في مياهها الانثوية . وتسبح فيها ، وتعبث كيف تشاء ، وأنّى تشاء . يا للفلالات السوداء الرقيقة، حتى الرخيصة منها ، وهي تنزاح وتتمزق عن اللحم الابيض ! اللحم الشهي الشاحب الابيض . يا للوجه المتكسر أسى وهو يموء نشوة واحساسا بالرجل . يا للدوائر البنية ذات السيقان الوسيطة المبتورة، وهي تثور وتتمرد على تهدلها الحزين . يا مواء حتى في شعر تحت الابط ، ذي العرق اللؤلؤي المنسال الخاص ، كل نقطة منسالة منه تحمل كل رائحة الانثى وغريزتها . يا للحزن حين يستحيل بتأثيرك تهتكا وفجرا ، وأمامك الطابور . اختر ما تشاء ، باصبعك أشر ، مجرد ان تشير . بارادتك جرب ، مجرد ان تختار . برغبتك ، حتى بمجرد انبثاق الرغبة في أعماقك الباطنة ، جرب . والجنرال هناك ، لا أعرف له مكانا على وجه التحديد ، وكانما هو يختار دائما ان يكون هناك لا أراه . هناك هو بالتأكيد ، بنظراته يطبطب على كتفي مشجعا داعيا مباركا ، حتى لو اخترت ابنة العاشرة سيبارك الاختيار . اللمس، مجرد اللمس اصبح مغريا الى حد مستحيل المقاومة . ولكني خائف خوف الموت ان المس . أعرف ومتأكد انه بمجرد اللمسة سيصبح الطابور كله لي ، والطابور طويل طويل ، والنساء كثيرات ، متباينات ، حتى بكل اساها الجنسي الخاص . اصابعي تأكلني . الرجل فيّ يعوي وأنا كالصخر الثابت أتفرج . والفرجة ليست دنسا ، وقلبي نظيف كبقعة المحلة البيضاء . الرغبة في صدري مكممة الافواه ، مكثفة الارجل والسيقان . مخنوقة تماما لا تملك ان تعبر عن نفسها أبدا . أخاف حتى مجرد ان أعبر عن نفسي . فبمجرد التعبير سأبدأ أنهار . الطابور يختلط . الالوان تفرز السواد . النسوة الكثيرات يستحلن الى غابة . الالوان زاهية زاعقة ، كبالونات الاعياد تنهمر . الحذاء يختصر الى الميني جيب والميكرو جيب واللاجيب ، السيقان اصبحت مصنوعة ومضبوطة على أدق مقاييس الجمال . الساق منها انثى كاملة. مصنوعات فليكن . وليكن الانتاج (ماس بروداكشن) . الباروكات اجمل من الشعر الاصيل ألف مرة ومرة . العيون الصناعية أحلى واروع من الطبيعية مليون مرة . وحسبما وكيفما تريد . يابانيه ضيقة ، وصينية معوجة ، واميركية واسعة ، وعربية سوداء ، وانكليزية زرقاء ، وخضراء وبنفسجية . المصنوعات يرفصن . بنطلوناتهن ممزقة . البلوجنز يفتك بالنظر ، تقشعر له العين ، وتنتصب له الرموش قبل ان يقشعر الجسد . الرفصة امامي تحدث . الوسط يتلوى ، بكل التواءة وسط نفول خذني . السيقان تتشنج ممدودة تجأر ، مكنونة تستجير . الاكتاف تهتز ، تضيق ، تتسع ، تنادي ، تقبل ، ترقص كي تقبل اكثر . الشفة السفلى تتدلى ، تسترخي ، تنقبض . الفم يضيق ضيقا داعيا مجنونا . أنا يا عم اتفرج . أموت رغبة ، تقتلني الرغبة ، ولكني لن افعل الا أن أتفرج . لقد جئت فقط كي ارى واتفرج . يا جنرال اعرف انك خلفي وانك تراقبني وان برأس عصاك اشعاعا ، يخضع الاشياء لكل ما أتمنى وارغب ، ولكني سأظل أتفرج ، بل لم يعد في طاقتي البشرية ، ان ابقى ، وان اتفرج .

الزورق وفهري للابتسامة والدعوة على وجه الجنرال. تودعني ، مشفقة تغبائي ، ساخرة . هزة الرأس أسفا ، بعيوني الخلفية أراها مودعة . الزورق يتحرك . أحس الآن بحركته ، وبالزمن بدأت اشعر . أنا ألهث ، مستريح الضمير ألهث . كمن نجح في امتحان شديد القسوة . ومستريح الضمير ألهث . لم المس . لم أتدنس . طول الوقت اتفرج . بقيت نظيفا كبقعة المحلة البيضاء ، كضمائر الناس الكثيرين المتزاحمين ، على شاطئي ، فوق المرسى ، أتفرج . أعناق مدلاة فوق الحاجز وسكون . سكون حبب الاستطلاع ، سكون الفرجة ، سكون يوم الدين ، ولكن الى نفس السكون أعود .

ولكن شيئا جديدا ، لم أتوقعه ابدا ، لمحته ، هناك ، وغير بعيد عن مكان المتزاحمين فوق المرسى القديم ، لمحته . ابني ، حافي القدمين في جلباب النوم ، واقفا . شعره مشعث . ملامحه فيها جمود المستيقظ لتوّه من غفوة ، وكان ناحيتي ينظر . اليّ ينظر مرة ، والى المتفرجين المدلاة أعناقهم مرة ، شاحب الوجه ، رفيعا ، نحيف الساعد، ولكن في ثبات ينظر . دهشت . جعلتني الدهشة الاولى احبه اكثر . انه ابني . دمي أنا ولحمي . قطعه مني قد انفصلت ، وأصبحت كائنا مستقلا فانفصلت بي اكثر . كائنا له وجهه الخاص ، ورأسه الخاص ، وساعده النحيل الخاص .

وصل الزورق ، يهدر . لامس الخشب القديم ولكني لم أغادره . النظرة الكامنة في عيني ولدي ثبتني في مكاني . لا ذرة بنوة واحدة ألحظها في النظرة . ماذا حدث ؟ تحرك ساعده . امتدت يده الى فتحة الجلباب . خرجت انيد قابضة على شيء معدني أسود . كان مسدسا . حسبته لعبة اطفال . ولكنه كان مسدسا رجاليا كبيرا . ماسورته بطول الساعد الناحل . مسدس حقيقي له فوهة . والفوهة تتحرك ، لتصبح دائرتها السوداء موجهة الى صدري مباشرة . بالضبط الى مكان القلب من الصدر . تعلقت نظرتي مستغيثة بكل ما لي فيه . لم تجب استغاثتي بادرة . الوجه وجه قاض ، والنظرة نظرة جلاد ، والفم يتمتم بالحكم . لا . أنا لم المس يا بني شيئا . يا مجنون . كنت مثل هؤلاء جميعا اتفرج . ارجع . لا تكن مجنونا . ما الجريمة ان أقف وأتفرج ؟ قلبي نظيف كبقعة المحلة البيضاء . كقلوب هؤلاء الناس، ولم أفعل الا التفرج . ارجع . أرجوك . أستحلفك . اعقل . فكر : ما الجريمة يا احمق ان اتفرج ؟

التمتمة تكف . الشفاه تنطبق في اصرار . الدوي . ارتعاشة اليد . الرصاصة في كتفي . الدمعة ألمحها تترقرق في عينه . الرصاصة الثانية كالكتلة تدك صدري . دويها لا أزال أسمعه . الثالثة لا أعود أسمعها .

(القاهرة) يوسف ادريس